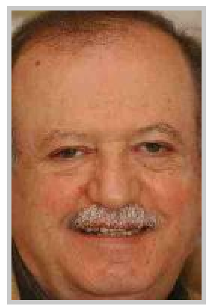
الأوان
من أجل ثقافة عقلانية علمانية تنويرية

لبنان، أشياع السنّة وأسنان الشيعة: جديد في رسم الجبهة

الأحد 29 تموز (يوليو) 2007

بقلم:
أحمد بيضون





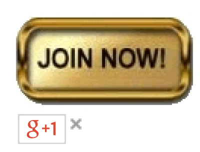
الدكتور أحمد بيضون، مؤرخ ومفكر وأديب لبناني، نشر العديد من المؤلفات من بينها "مغامرات المغايرة، اللبنانيون طوائف وعربا وفينيقيين" (2005)، "الجمهورية المتقطعة" (مصائر الصيغة اللبنانية بعد اتفاق الطائف، 1999)، "كلمن . من مفردات اللغة إلى مركبات الثقافة" (1997)، وديوان شعري بعنوان "ديوان الأخلاط والأمزجة". وقد خصّ "الأوان" بنشر هذه الدراسة التي ستصدر قريبا جدا في كراس عن "المركز اللبناني للدراسات".

—

إن اعتمدنا الحالة اللبنانية مثالا، لاحظنا أن ما ينذر اليوم بشر مستطير فيوشك أن يمزق البلاد وأن يودي بأهلها إلى التهلكة من مواجهة تغلب عليها الصفة السنّية الشيعية إنما هو أمر جديد كل الجدة. فقد جرت العادة، من يوم أن نشأ لبنان المعاصر، أن ننظر إلى مجتمعه على أنه مخترق بخط إجمالي فاصل وواصل ما بين المسلمين والمسيحيين. حين كان اللبنانيون ينظرون إلى هذا الخطّ على أنه خطّ واصل كانوا يرون أجلّ القيم المؤسّسة لوطنهم ولمجتمعهم راسية عليه. وحين كانوا ينظرون إليه على أنه خطّ فاصل كانوا يعتبرون أشدّ مشكلاتهم خطرا معتملة بين ضفتيه.
وقد بلغ هذا الخط من قوة الرسم مبلغا جعل اللبنانيين مجبرين على إطالة التحديق وعلى الجنوح إلى ما يشبه التوهم كلما أرادوا أن يتبينوا لأنفسهم هوية جامعة تشتمل على ضفتي هذا الخط. وكان عسيرا عليهم أيضا أن يتبينوا خطوطا أخرى ترسم الحدود ما بين أجنحة لمجتمعهم يرون اختلافها أو ائتلافها أوفق لمصالح وطنهم الجامعة ويرون لها حقيقة أبعد غورا وأسلم عاقبة، في آن، من حقيقة التقابل ما بين الجماعتين الكبريين. فإذا هم تطلعوا إلى لعبة تنظيم وتحالف وتخالف سياسية تغيب عنها الهويات الطائفية وتأخذ بمصالح متعلقة بالمعاش والعمران، مثلاء، أو بالموازين الخارجية المحدقة ببلادهم، أعياهم البحث عن قوى في صفوفهم يعتدّ بها تقبل على هذه اللعبة تاركة الهويات المشار إليها جانبا ومرتضية التخالط أو التنابذ وفق الخطوط الجديدة التي تفترضها اللعبة المقترحة. وإذا بحث الباحثون من بينهم عن أحلاف لطبقات أو لمراتب طبقية، مثلا، أو عن أخرى لبعض جماعات المهن والأعمال، في الأقل، ترصّ صفوف المستغلين وراء المهضوم من حقوقهم الاقتصادية الاجتماعية وتأخذهم إلى مواجهة من يفتئتون على تلك الحقوق من غير اعتبار للانتماء الديني في هذه الضفة ولا في تلك، بدا لهم أمر هذه الأحلاف، مع إفلاحهم في إرسائها في هذا الموقع أو ذاك أو في هذا الظرف أو ذاك، أمرا ضيق النطاق أو قصير المدة – إذا اتسع نطاقه. فلا يستقيم اعتبار ما كان من هذا القبيل ملمحا غالبا للتفاعل الاجتماعي ولا ينجو إلا لماما من طمس القسمة المسيحية الإسلامية رسمه، إلى هذا الحد أو ذاك، وتجديد استحواذها على الصورة كلها، في نهاية المطاف.
ولم يكن اللبنانيون وحدهم من يعتمد ثنائية الإسلام والمسيحية سمة قطعية الغلبة لصورة مجتمعهم العامة، خيرها وشرها. وإنما كان العالم كله يرى إلى لبنان على أنه بلاد يروح المسيحيون والمسلمون ويغدون بين ظهرانيها ويتوادون أو يتشادون بحسب ما تقضي الظروف والمطامح. هذا ما كان يستوقف العالم من لبنان، قبل الالتفات إلى شمس لبنان وبحره أو حره وبرده وإلى طيب الإقامة فيه للغريب أو نكدها عليه، أكانت عابرة أم مديدة.
اليوم تزداد طغيانا، أسبوعا بعد أسبوع، صورة للبنان، جديدة كليا عليه وعلى من يعرفونه في أصقاع أخرى من الأرض. وهي صورة البلاد التي يتواجه فيها السنّة والشيعة ويتوزع المسيحيون بين معسكريهم هذين ويوشك المعسكران أن يأخذا كلاّ بخناق الآخر. والحق أن إدراك اللبنانيين لحقيقة طوائفهم المختلفة وقوة الفوارق بينها، في ما يتعدى انتظامها في سلكي الديانتين الجامعتين، ما هو بالأمر الجديد. حتى أنه يصح القول إن المجتمع اللبناني كان أقرب إلى الظهور منتظما في ديانتين حين ينظر إليه غير اللبنانيين من خارج. وأما حين ينظر إليه اللبنانيون من داخل فكان أقرب إلى الظهور مؤلفا من ثماني عشرة طائفة. وكانت (ولا تزال) توجد حدود حسية ماثلة وصور تاريخية حية للعلاقات بين هذه الطائفة وتلك وخصوصا في نطاق كل من الديانتين. أما الحدود الحسية فهي قائمة في كل ميدان تقريبا أية تكن كثرة الحالات التي







تخرق فيها من قبل الأفراد. هي قائمة في التزاوج وفي السكن وفي الملكية وفي العمل والتعامل وفي مرافق التعليم وفي تشكيلات المعاشرة والصداقة فضلا عن مثولها في الشعائر والعبادات، بطبيعة الحال. وقد مدّها نظام الطائفية السياسية إلى مؤسسات السلطة المختلفة وإلى المجتمع السياسي الذي يرعى تكوين هذه المؤسسات ويقودها. وأما الصور التاريخية فهي متنوعة المفاعيل وهي تبقى في التداول ويتخير منها بحسب الأوساط والمراحل والحالات ما يزكّي الألفة أو ما يؤكد التنافر. وهي تقدّم حينا على أنها بقايا من عهود بائدة وحينا على أنها شواهد حية لأوضاع ثابتة على الزمن.

هكذا بقيت تروى حكايات تشي بالجفاء التاريخي المستشري بين الموارنة والروم الأرثوذكس. وبقي الدروز يقدّمون على أنهم قوم غامضون، لا يسبر غورهم ولا يطمأن إلى نواياهم. وكان ما يغري بتأبط هذه الصورة الأخيرة سهولة مدّ الصفة "الباطنية" للمذهب الدرزي إلى دوائر لا شأن للسلوك فيها بالمذهب الديني مبدئيا. ولم تكن العلاقات بين الشيعة والسنة بمنأى من هذه الصور الجاهزة الميسور استعمالها وإساءة استعمالها أيضاً. فكانت تستحضر في البيئات السنّية أقوال تتصل بغلو الشيعة في علي وآل البيت وبغمطهم سائر الراشدين والسيدة عائشة حقهم وسابقتهم في حفظ الرسالة ونشرها وعدّهم إياهم غاصبين عليّا حقا يراه الشيعة مثبتا له بوصية النبي المعصوم، إلخ.، إلخ. وكانت البيئات الشيعية، حين تخلو إلى نفسها، تردّ هذه التهمة بتبنّي البعض من عناصرها وردّ البعض الآخر وتجنح، فوق ذلك، إلى المزج بين أهل السنّة والحزب الأموي في صدر الإسلام، فتحمّل أهل السنّة أوزار محاربة علي وقتل الحسين وأهل بيته وأصحابه، إلخ.، إلخ.

ماضي اعتدال وتقارب

على أن هذا التلاوم كله لبث محصورا في حدود لا تتعذر معها مداراة مفاعيله. كان التسنّن اللبناني معتدلا على الدوام وكان التشيع اللبناني معتدلا أيضا. لا ريب أن شيعة لبنان، وقد خرجوا من 400 عام من السيطر ة العثمانية، كانوا يأخذون على السلطان (وهو، في أيامه، رأس الدولة السنّية العظمى) أنه لم يقرّهم يوما على مذهبهم بالاعتراف الصريح بهذا المذهب، وذلك بخلاف صنيعه مع الملل غير الإسلامية، وأنهم ظلوا، في عهود السلطنة كلها، مضطرين إلى الاستتار (وإن يكن صوريا غالبا) لإحياء شعائرهم الخاصة بهم وأهمها ذكرى عاشوراء. ولكن شيعة لبنان (الذين حازوا ما طلبوه من اعتراف بمذهبهم وتنظيم معلن له من يد السلطة الفرنسية المنتدبة في مطلع العام 1926) لم يظهر منهم ما يشي بتحميلهم مواطنيهم اللبنانيين من أهل السنّة مسؤولية ما عن المسلك العثماني حيالهم. فإن دعوة القومية العربية (التي استمالت طلائع وقطاعات مهمّة من الشيعة) كانت قد حملت معظم السنّة، في المناطق العربية (وبينها تلك التي أصبحت لبنانية لاحقا) على موقف جافٍ من السلطان في العهد العثماني الأخير. فخرج هؤلاء ومعهم الشيعة من الدولة العلية، بعد محنة الحرب العالمية الأولى، وهم متقاربون في الموقف الإجمالي. ولبث هذا التقارب حاصلا في عهد الانتداب الفرنسي، إذ جنح الطرفان معا إلى الشكوى من غلبة المسيحيين (والموارنة منهم على الأخص) على مغانم الدولة اللبنانية الجديدة. وهذا مع أن الشيعة مالوا بمعظمهم، بعد انهيار الدولة الفيصلية في دمشق، إلى مسالمة السلطة المنتدبة آملين منها تقويما للمعوج من أحوالهم ومعتبرين بشدة القمع الذي خرب ديارهم حين قاوموا، في ركاب فيصل، استتباب الأمر للمحتلين الفرنسيين في تلك الديار. فإن هذه المسالمة نفسها لم تكن لتفسد قضية الودّ فعلا بينهم وبين مواطنيهم من أهل السنّة، وقد كانت صفوف هؤلاء قد عرفت، حتى مطلع النصف الثاني من الثلاثينات على الأقل، نوازع قوية من القبيل نفسه.

في الأساس، كان التشيع اللبناني، بما هو تشيع عربي، قريبا من مواقع الاعتدال في الإسلام السني، وهذا بخلاف التشيع الإيراني، بل أيضا بخلاف التشيع العراقي في بعض تجليات هذا الأخير، على الأقل. فإن وجود مقامات لكثرة من أئمة الشيعة في العراق وكذلك الأثر الإيراني المباشر في التشيع العراقي قد أمليا على هذا الأخير أسلوبا تحضر فيه النزعة الاحتفالية والشعائر الجماعية بقوة. وأما تدين الشيعة اللبنانيين فكان لا يزال لنحو ثلاثة عقود أو أربعة خلت، "طبيعيا"، إن جاز هذا الوصف، أو خافتا لا مغالاة فيه ولا استعراض (ولا تنتقص صفة "الخفوت" هذه من حرارته ولا من صدقه بالضرورة) وكان، في الكثرة الكاثرة من مناسباته، شأنا للأفراد لا للجماعات، يمارسونه في عزلة بيوتهم. وكان هؤلاء متسامحين أيضا، على أنحاء مختلفة، مع غير المتدينين في أوساطهم. وقد حملت أسرة إيرانية إلى النبطية، في جنوب لبنان، أسلوب الشيعة الإيرانيين المسرحي والفاقع التفاصيل في إحياء ذكرى عاشوراء، وكان ذلك في أوائل القرن العشرين. ولقيت هذه "البدعة" مساندة من بعض مشايخ المذهب المحليين ومعارضة من آخرين واستوت موضوعا لجدال طويل. ثم استقرت ولكن في النبطية وحدها، وأصبحت، بمرّ السنين وعلى التغليب، مناسبة لنوع من السياحة الداخلية وللتجارة ولظهور معان أخرى أكثرها اجتماعي أو سياسي وأقلها تقوي. وهي قد بقيت على هذه الحال إلى أن تقضّى شطر من الحرب اللبنانية الطويلة ووقع الاجتياح الإسرائيلي للبنان في سنة 1982. فكان أن اتخذت منحى آخر جعل من كثرة الدم المراق في المناسبة ومن عنف اللطم وشدة العويل مظهرا لمقاومة المحتلين.

انتشار الأثر الإيراني

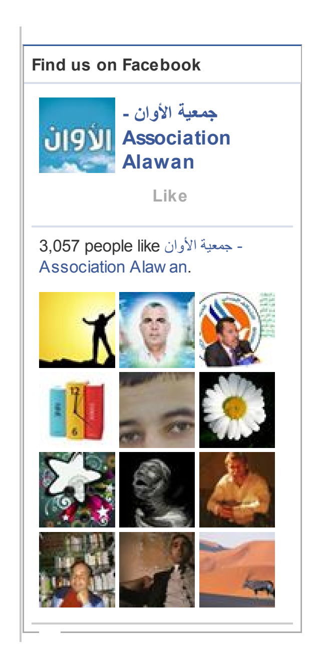
فضلا عن ذلك، مال هذا الأسلوب إلى الانتشار في مواطن الشيعة اللبنانيين المختلفة، فعاد غير مقصور على النبطية. وقد واكب انتشاره (وتحوله إلى مزيد من الحدة وإلى ضرب من الاستعراضية شبه العسكرية، في آن) انتشار مضامين ومسالك إيرانية المشرب في أوساط الشيعة اللبنانيين، وهي مضامين ومسالك لم تكن معهودة منهم قبل الثمانينات من القرن العشرين أو كانت محصورة جدا ومحدودة الأثر بين ظهرانيهم. وهي قد أثمرت في الواقع صورة جديدة للتشيع عند الشيعة اللبنانيين أو في أوساط واسعة منهم على الأصح. ولعل أبرز معالم الصورة المذكورة – فضلا عن التحوير الذي حصل لمراسم عاشوراء ولمضامين المجالس الحسينية وفضلا عن استحداث مناسبات كثيرة للاحتفال متصلة بسائر آل البيت – تصدّر الإمام المهدي وانتظار ظهوره مسرح المخيلة الشيعية بعد أن كان رهينا لكواليس المسرح المذكور. فمع إطلاق اسمه على المدارس التي يرعاها الحزب وعلى كشافة الحزب وعلى أشياء أخرى كثيرة، أخذ يوحى بأن ظهوره قريب وبأن على المؤمنين التمهيد لهذا الظهور بأفعال تهيىء العالم لحصوله وبأن عمل الحزب ما هو إلا جهد يبذل في هذا السبيل. وكان من شأن هذه الكثافة المستجدة للشعائر وهذا التوجيه لها أن يأخذا بتلابيب الجمهور كل يوم وأن يضعاه بأبعاد وجوده كافة، بما فيها البعد السياسي، في مجرى شعائري جارف يرسم الحزب مآله ويعيّن محطاته على كل صعيد.

ولنفتح هلالين هاهنا. لا ريب أن هذه المضامين كلها تحدث حدثا جديدا كليا على "الطائفية" اللبنانية. فإن مهمة الدين أو المذهب الديني، في هذه الطائفية، لم تكن تتعدى، عادة، رسم الحدود بين الجماعات، بما هي حدود تضامن مبدئي وتفارق مبدئي أيضا، وتلوين البعض من تصرفات الجماعة أو من مناسبات اللقاء بين أبنائها بلون موحد. فلم يكن الدين أو المذهب، بأحكامه ومضامينه وشعائره، مصدرا أو مرجعا مباشر المثول للعمل السياسي ولخيارات هذا الأخير أو أهدافه ولتصوره نظام الدولة، على الأعم. لذا أخذ استمداد حزب الله الدين مضامين وصيغا وشعائر للتعبئة السياسية يبدو مصدر حرج للتقليد الطائفي اللبناني برمته ولـ"دنيويته" الغالبة. فقد لاح في أفق هذا الاستمداد شبح كسر مبدأ المساواة الحقوقية بين اللبنانيين وترتيبهم طبقات حقوقية، على أساس صيغ الإيمان الديني المختلفة التي ينسبون إليها. وما من ريب في أن اقتران هذا الشبح بصورة التنظيم المسلح والمتخذ مرجعا له جمهورية مذهبية الهوية ما كان إلا ليزيد الهواجس ثقلا. على أن ما أرجأ طغيان هذه الهواجس على الساحة العامة، إنما كان عزوف حزب الله، إلى حين، عن طلب سلطة الحكم في البلاد وإعلان قيادته المتكرر لزومها أحكام الدستور وقواعد نظام الدولة القائم. وهاهنا نغلق الهلالين.

تقرؤون أيضاً

- متى قتلتُ الدبّ متى
- كتاب: «هارلم»: تدمير
- أثقل من رضوى.. مقاطع
- هنا قندهار... الرقة
- Picasso
- عن الحقوق في فيلم (...)
- عولمة الفقر.. وفشل
- لم يتأخّر أغلب الممانع
- Jean-Auguste-Dom (...)
- أخلاق السادة
- عاليه ممدوح: أنا (...)
- النساء السيئات / (...)
- Fred Deux (رنسا)
- "الراديكاليون"، دعوة
- حانات بغداد الراحلة

الفيسبوك



تويتر



وفي ما يتصل بـ"الصور التاريخية" – إن كان لنا أن نعود إليها – عرف لبنان، على الدوام، (وعلى الأخص، في عهوده الاستقلالية) متنورين أو معتدلين من السنّة ومن الشيعة. أراد هؤلاء اتقاء ما في "الفتنة الكبرى" ومقدماتها وعواقبها في تاريخ الإسلام من بذور دائمة الاستعداد لإفراخ فتن مستأنفة. فراح أهل الشيعة منهم يدعون أقرانهم من أهل السنّة (ويدعون معهم مسيحيين أيضا) إلى الخطابة في مآتم الحسين مثلا وراح أهل السنّة منهم (ومعهم مسيحيون أيضا) يشاركون الشيعة احتجاجهم على هضم حقوقهم في الصيغة اللبنانية ويطلبون لهم ما تفترضه لهم هذه الصيغة أصلا من مكانة في الجمهورية. على أن المتنورين أو المعتدلين ظلوا، مع إخلاصهم في السعي والطيب من آثار عملهم، قلّة في الجهتين، على الدوام. فيتسع نطاق تأثيرهم أو يضيق تبعا لدرجة الحدة في الاستقطاب السياسي ولوجود أغراض ظاهرة للجدال السياسي ذي المنحى الطائفي أو لغياب هذه الأغراض. والحق أن هذا النوع من الأغراض هو بيت القصيد. وهذه الأغراض نادرا ما وجدت بين شيعة لبنان وسنّته، على التحديد، وأندر منه أن يكون لها شأن كبير، متى وجدت بينهم، قبل ربع القرن الأخير، في التقدير الأبعد، وقبل السنتين الأخيرتين في التقدير الأقرب. فما الذي عدا مما كان قد بدا؟

وجهة واحدة للشكوى

في السياسة، كانت لصيغة النظام اللبناني الذي أرسي على قاعدة الاستقلال سنة 1943 سمعة التفاهم الماروني السنّي. فالمعروف أن ما أطلق عليه لاحقا اسم الميثاق الوطني كان اتفاقا قوي القابلية للاجتهاد بين زعامتين لتينك الطائفتين تبوأتا سدّة الأحكام معا. إلا أن الشيعة (وقد أصبحوا غداة الميثاق طليعة الشاكين من "الحرمان" السياسي الاجتماعي وجمهوره الأعظم في آن) قلما نسبوا إلى السنّة، في هذه المرحلة أيضا، مسؤولية ما عن "الحرمان" الذي كانوا يشتكون. بقيت الغلبة المارونية على مقاليد الحكم ومنافعه هي المستهدفة الأولى بالشكوى. وما لبثت هذه الشكوى أن أصبحت مشتركة، إلى حد بعيد، بين السنّة والشيعة، وذلك، على الخصوص، بعد العهد الاستقلالي الأول. لم يجمع الشيعة اللبنانيون (ولا أجمع السنّة اللبنانيون، في كل حال) على مجاراة الحركة القومية العربية في صيغتها الناصرية ولا على معارضة رئيس الجمهورية كميل شمعون الذي أبدى ميلا إلى سياسة الأحلاف الغربية المناوئة للناصرية وأراد أيضا تجديد ولايته. وكان عصيان 1958 المسلح عصيانا سنّيا ودرزيا، بالدرجة الأولى، ولكن البعض من أهم الزعماء الشيعة ضلعوا فيه أيضا ولزم البعض موقف الحياد. ولم يكن من وقفوا في وجهه ممثلين لأكثرية الشيعة بأي حال وكان لهم نظراء في الوسط السنّي نفسه. ثم جاء العهد الشهابي، ممتعا بتفاهم أميركي- مصري على حفظ استقراره. فباشر حملة إصلاح وتعديل للموازين استقطبت له ولاء إسلاميا واسعا، على اختلاف المذاهب، ونقلت إلى طليعة مواجهيه بعض العتاة من زعماء الموارنة، وهم الذين كانوا ولاة الأمور في العهد الذي سبقه. وحين استعاد هؤلاء الزمام في أواخر الستينات، بدأ المسلمون مرحلة ازورار واسع جديد عن السلطة الحاكمة واقترن شعار "المشاركة" السنّي بشعار رفع "الحرمان" الشيعي واستمرت غالبة ملامح التضامن على صورة العلاقات ما بين الطائفتين الإسلاميتين الكبريين.

"جيش السنّة" الفلسطيني

وفي عقد ونصف عقد من حرب مختلفة الأطوار وكثيرة الأطراف، لبث السنّة والشيعة، على وجه الإجمال، في جانب واحد من خط الفصل الطائفي ولكن مع حالات توتر وتنافر لا يجوز التقليل من وقعها على مجرى العلاقات بين الجماعتين. فقد مال جماعات الشيعة، بشيء من السرعة، بعد 1970، إلى النفور الضمني أو المكشوف، من سطوة المنظمات الفلسطينية في جنوب لبنان، وذلك مع تكرار الضرب الإسرائيلي لبلدات وقرى حدودية كان الأمن وحده هو الجانب المرضي من جوانب حياتها بعد نكبة فلسطين وهدنة 1949 بين لبنان وإسرائيل. هذا بينما بقي غالبا، حين دخلت البلاد في الحرب، نوع من التعويل السنّي على الحماية الفلسطينية. وبقي نصيب السنّة اللبنانيين من قوى الحرب مقصورا على تنظيمات صغيرة ملحقة، على الأغلب، بتنظيمات الفلسطينيين وظهر تعويل سنّي على هؤلاء في أطوار التفاوض اللبناني المختلفة، قبل سنة 1982، على الإصلاحات المطلوبة، من الجهة الإسلامية، في نظام الحكم اللبناني. فأصبح ينظر في أوساط مختلفة – حقا أو باطلا – إلى التنظيمات الفلسطينية المسلحة على أنها جيش السنّة في لبنان. وهذا مع العلم بأن الحركة الوطنية اللبنانية، وهي إذ ذاك حليف المقاومة الفلسطينية الرئيسي في البلاد، كان يتصدرها الزعيم الدرزي كمال جنبلاط وكان قوامها الأظهر أحزاب يسارية أو قومية علمانية وكان الحضور السنّي المباشر يأتي ثانيا أو ثالثا فيها. فوق ذلك، رزحت القوة العسكرية السورية رزوحا شديد الوطأة على الدور السياسي لهذا التحالف اللبناني الفلسطيني ونحت إلى تطويعه مع رعاية حدّ لهذا التطويع هو دور القوة الفلسطينية المركّزة في الجنوب، وكانت بمنأى نسبي من الضغط السوري، بل لبثت قادرة أيضا على إقلاق السلطة السورية وإحراجها عبر تحكمها بميزان التوتر على الحدود الجنوبية.

أطوار الشيعة ومحنة السنّة في الحرب

في مساق هذا الضغط على الحلف الفلسطيني اللبناني، بدا التعويل السوري على العامل الأهلي الشيعي أمرا مفروغا منه. وقد رعت السلطة السورية ترتيب البيت الشيعي مباشرة بعد اختفاء موسى الصدر في ليبيا، في نهاية آب 1978. وكان هذا الأخير قد رفض الضلوع في الحرب الأهلية، إلا في حدود الدفاع عن النفس الذي اضطر إليه تنظيمه فعلا عند اجتياح الميليشيا المسيحية، في صيف 1976، ضواحي بيروت الشمالية المكتظة بالشيعة. وقد أسفر الترتيب، بعد مرحلة انتقالية، عن اشتداد أزر الحركة الصدرية، أمل، بقيادتها الجديدة وفرضها نفسها طرفا مقاتلا في بيروت وضاحيتها الجنوبية. وهو ما افتتح، في أعقاب اجتياح الإسرائيليين بيروت، في صيف 1982، وخروج المقاتلين الفلسطينيين والقوات السورية منها، مرحلة تميزت بامتحان العلاقات السنّية الشيعية امتحانا صعبا، في بيروت على الخصوص. وكانت العلامة الظاهرة لهذا الامتحان الرزوح الشيعي من مسلح ومهجر (وهما مختلطان، في تلك الأثناء) على شوارع بيروت السنّية وأحياء مختلفة منها وما كان يفضي إليه هذا الرزوح من احتكاك متكرر بين هذا التنظيم وتنظيمات أخرى من الحركة الوطنية المنحلة عادت إلى مواقعها مع رحيل المحتل الإسرائيلي ثم مع لحاق القوة المتعددة الجنسية به بعد الضربة التي أدمتها في صيف 1983. وكانت حركة أمل هي المتصدرة حركة 6 شباط 1984 التي منعت قوات الجيش اللبناني الموالية لرئيس الجمهورية الجديد من دخول بيروت الغربية والضاحية الجنوبية. وقد سادت على الأثر حالة التقاسم المرير لبيروت السنية أو المختلطة بين مليشيات (أظهرها الشيعية والدرزية) قلّ فيها من يمتّ إلى أهل بيروت بصلة. واستولد التقاسم تشاجرا شبه يومي تخلله عراك واسع النطاق بين المليشيا الشيعية وأختها الدرزية. وكانت مرحلة التعاون التي سبقت قد اتسعت، في شباط 1984 أيضا، لمبادرة الطرفين إلى القضاء شبه المبرم على تنظيم "المرابطون". وكان هذا التنظيم أبرز معلم سنّي باق في مضامير النزاع الأهلي المعقدة.

وزاد الطين بلة ما شهدته تلك المرحلة من تكاثر لخطف الأجانب ومن حرب دامية للغاية بين مسلحي الشيعة ومسلحي المخيمات الفلسطينية كانت، في الواقع، حربا (دارت بعض فصولها في العاصمة نفسها) بين ياسر عرفات الراغب في العودة إلى بيروت والجنوب (وإن باشرها، في أواخر 1983، بظهور عابر في طرابلس!) وحافظ الأسد، المرابط جيشه في أعالي الجبل اللبناني والراغب أيضا في العودة إلى العاصمة وأرجاء أخرى من البلاد من غير منازع فلسطيني. وقد انتهت هذه المذبحة بعودة جيش الأسد إلى بيروت، في شباط 1987، بعد رجاء من زعماء المسلمين اللبنانيين وفي مقدمّهم بعض زعماء السنّة. وكان الجيش السوري قد طوع طرابلس قبل ذلك بشهرين. وهو قد انتشر، في ربيع العام التالي، من العاصمة

إلى ضواحيها الجنوبية، وذلك بعد أن كانت الحرب الشيعية الفلسطينية قد أتت أكلها. ولكن ما أريق من دماء، في تلك المرحلة، وما أهدر من أرزاق وكرامات ترك ندوبا لا ريب في عمقها في نسيج العلاقات بين سنّة لبنان وشيعته.

الفقيه يفرض ولايته

قبل ذلك بأعوام، كانت الثورة الخمينية قد أمسكت بمقاليد إيران. وكانت الحرب العراقية الإيرانية قد تبعتها عن كثب. وعلى الرغم من جنوح الشيعة اللبنانيين إلى إلباس نظام صدام حسين عباءة سنّية وإدراجه في سلسلة قلما تقطعت من طواقم سنّية حكمت العراق المعاصر وتحكمت في شيعته، وهم أكثرية مواطنيه، وعلى الرغم أيضا من دعم معظم الدول العربية، السنّية الانتماء، صدام حسين في حربه هذه، لم تظهر للملحمة الإيرانية-العراقية آثار قاطعة في صورة العلاقات بين الشيعة والسنّة من اللبنانيين. فقد كانت تقلبات الحرب المتوالية وأحلافها الرجراجة تشوش تلك الآثار، مع وجودها، وتمنعها من الاستقرار. كان ياسر عرفات قد رفع على أكف الثورة في طهران ثم ابتعد عنها. ولم يلبث النظام السوري أن دخل في حلف وثيق مع النظام الخميني زكاه الصراع بين البعثين وحاجة طهران إلى من يبعد عن الحرب بينها وبين بغداد صورة الصراع العربي الفارسي. إلخ. فوق ذلك، توالت أخبار الدعم العراقي، في سنوات الحرب نفسها وبعدها بقليل، لأطراف مسيحية لبنانية كان بينها وبين دمشق ما صنع الحدّاد ولكنها كانت لا تزال خصما، أيضا، للمسلمين اللبنانيين في الحرب الأهلية الدائرة. إلخ... هذا كله لم يكن ليسعف في صوغ موقف مستقر أو غالب تنحاز معه كل من الطائفتين الإسلاميتين في لبنان إلى جهة من جهتي الحرب بين العراق وإيران.

كان أثر الثورة الإيرانية في لبنان يعتمل، خلال تلك السنين، في صعيد آخر بدا، لأول وهلة، بعيدا، بمعنى ما، عن مجرى العلاقات السنّية-الشيعية في البلاد. ولكن هذا البعد، الذي بقي جزئيا، في كل حال، لم يكن، في نهاية المطاف، غير وهم تضافرت قوى وظروف مختلفة على إدامته سنوات طويلة إلى أن أخذ يتبدد قبل سنتين أو أكثر من ذلك بقليل. فمنذ غدوات الاجتياح الإسرائيلي للبنان، في سنة 1982، أخذت تتكون النوى التي خرج منها حزب الله، باسمه هذا، بعد سنوات ثلاث، برعاية إيرانية مباشرة ودؤوبة. وكان منطلق هذه النوى انشقاقا في حركة أمل حدث من جرّاء تقبل قيادتها الحوار مع القيادة المسيحية المتورطة في تعاون معقد مع إسرائيل. ثم ترسخ الانشقاق مرعيا من مشايخ كانوا ذوي صلة بحزب الدعوة العراقي في النجف وببعض قيادات الثورة الإيرانية. وأخذت تروج أخبار تصل ما بين التنظيم الجديد وخطف الرهائن الغربيين وتؤكد الوجود المباشر لمدربين ومقاتلين من الحرس الثوري الإيراني في بعض المناطق الشيعية. ومع أن هذه الجوانب من أوضاع التنظيم الجديد ونشاطه أقلقت أوساطا طائفية كثيرة، بعضها شيعي، في البلاد، فإن مصدر القلق الأعمق كان اعتماد الحزب الجديد شعار "الجمهورية الإسلامية" في لبنان. وهذا قلق لم يكن سنّياً وحسب، بطبيعة الحال، وقد لجمه إلى حدّ ما كون الشعار بدا نظريا وعصيّا على التحقيق في مجتمع له موازين المجتمع اللبناني. لجم القلق أيضا كون الحزب قد صرف جهوده إلى توطيد وجوده وتوسيعه في الوسط الشيعي وإلى مقاومة الاحتلال الإسرائيلي لجنوب البلاد وبدا عازفا، إجمالا، عن التورط المباشر في التجاذب السياسي بين الطوائف. ثم كبت القلق، بعد انتهاء الحرب، حين بدا الحزب عازفا عن مقاسمة أطراف السلطة الجديدة أجبان هذه الأخيرة وألبانها.

في تلك المدة، أي في النصف الثاني من الثمانينات، كان الحزب قد أبعد، بالعنف المسلح والاضطهاد سائر التنظيمات القومية واليسارية المشاركة في أعمال مقاومة الاحتلال في جنوب البلاد. وكانت حركة أمل قد واطأته على هذا الإبعاد، ولكنها ما لبثت أن وجدت نفسها، في أواخر الثمانينات ومطلع التسعينات، تواجهه (ممتعة بسند فلسطيني!) على أرض الجنوب وفي ضواحي بيروت. وهذه مواجهة انطوت على جولات قتال بالغة القسوة وثقيلة الكلفة البشرية. وقد بدا الحلف الإيراني السوري، في تلك الأثناء، عاجزا عن فرض أسلوب أدنى كلفة لتقسيم المجال الشيعي البشري والجغرافي ومواطن النفوذ الشيعي المختلفة بين المنظمتين المواليتين له، وقد أصبحتا مستحوذتين على كل ما هو مهم وفاعل من مقاليد الطائفة، تقريباً. حتى أن الأمر بدا وكأنه حرب إيرانية سورية مستترة أو كأنه تسليم من الدولتين بتعذر ترتيب على الأرض لا تكون له هذه الكلفة الفادحة.

شيعة للدولة وشيعة للثورة

في كل حال، غطّت الحرب الشيعية-الشيعية (وما تلاها بقليل من حرب مارونية-مارونية)، بما هي فصل من الفصول الختامية الحامية الوطيس في الحرب اللبنانية، فصولا وصورا سابقة من هذه الأخيرة بما في ذلك ما كانت العلاقات السنّية الشيعية قد امتحنت به من تردّ وتوتر متماديين في الثمانينات. وقد جاءت التسوية الشيعية عبقرية في أسلوب مداراتها لمصالح كل من التنظيمين ولمواطن الحساسية في العلاقات بين الشيعة وطوائف أخرى تقف في مقدمها الطائفة السنّية. ولم يكن المرجعان السوري والإيراني بعيدين عن إخراج هذه التسوية، بطبيعة الحال. قامت صيغة التسوية الشيعية، في مرحلة ما بعد الحرب، على توزيع للمقاليد بين تنظيمي الطائفة يبدو غريبا حين ينظر إليه من أية دولة صحيحة البنية. أوكلت سياسة النصيب الشيعي من منّ السلطة وسلواها إلى حركة أمل. وأوكل أمر مقاومة الاحتلال حصرا إلى حزب الله.

كان حزب الله، قد أبدى، في مستهل هذه المرحلة، رفضا حادا لاتفاق الطائف الذي رعى خروج البلاد من الحرب. على أنه عاد عن هذا الموقف بعد أن ضمن الاحتفاظ بسلاحه باعتباره سلاح مقاومة للمحتل فيما سلّمت التنظيمات المسلحة الأخرى سلاحها إلى الدولة أو انتفعت ببيعه. ثم قايض الحزب، في انتخابات 1992، وهي الأولى بعد الحرب، سحب شعار "الجمهورية الإسلامية" من التداول بدخول مجلس النواب. وقد فرض المرجع السوري تحالف التنظيمين في الانتخابات، ولم يكن عهدهما قد بعد كثيرا بأوزار المواجهة بينهما في ميادين القتال. وهو – أي المرجع السوري – قد واظب على هذا الفرض في كل انتخابات نيابية جرت بعد ذلك حتى انسحاب قواته من لبنان. واتخذ حزب الله مجلس النواب منبرا سياسيا لمقاومته المسلحة وموقعا للمراقبة والدعاوة ولتوثيق الأواصر بالمجتمع السياسي اللبناني على اختلاف مشاربه وعزف، حتى سنة 2005، عن المشاركة في الحكومات. وبدا عيشه رغدا، في هذا المجتمع السياسي، ما دام يقاتل لتحرير الأرض ثم يحررها فعلا ويبقى، مع ذلك بمنأى عن مغانم السلطة على اختلافها. وكان الساسة السنّة، وقد لفّت العباءة السورية الفاعلين منهم حتى أواخر التسعينات، آخر من يخطر له الاعتراض على تنظيم يقاتل المحتل باقتدار عسكري واضح وحنكة سياسية لم تفلح دائما في لجم الآلة الإسرائيلية الضاربة ولكنها أبدت، على الجملة، قدرا عاليا من الشعور بالمسؤولية في هذا الصدد. هكذا لبثت العلاقة بين حزب الله وحكم رفيق الحريري مقبولة إجمالا على الرغم من الجدل المتطاول حول الترتيب المدني لمنطقة الضاحية الجنوبية، وقد أفضى إلى تجميد أجزاء مهمة من هذا الترتيب. قبل ذلك بأعوام، كان قد وقع حدث كبير هو قمع تظاهرة سيرها حزب الله ، في 13 أيلول 1993، احتجاجا على اتفاقية أوسلو. وقد سقط من جراء القمع بالنار عشرة قتلى من المتظاهرين عند جسر طريق المطار القريب من مدخل حارة حريك.

(للدراسة بقية)

شارك اصدقاءك هذا المقال



